

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين، اللهم لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم، اللهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علماً، وأرنا الحق حقاً، وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلاً، وارزقنا اجتنابه، واجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه، وأدخلنا برحمتك في عبادك الصالحين، أخرجنا من ظلمات الجهل والوهم إلى أنوار المعرفة والعلم، ومن وحول الشهوات إلى جنات القربات .
ما هي البلاد التي فتحها الربيع بن زياد الحارثي، وما اسم القائد الذي شاركه في فتح هذه البلاد، وما هي المكافأة التي كافأ بها الربيع هذا القائد ؟

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس الرابع عشر من دروس التابعين رضوان الله تعالى عليهم أجمعين، والتابعي اليوم هو ربيعة الرأي .

تبدأ قصة هذا التابعي في السنة الواحدة والخمسين للهجرة، وكتائب المسلمين تضرب فجاج الأرض مشرقةً مغربةً، حينما نفذ المسلمون قوله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ﴾

[سورة التوبة الآية: 123]

إلى أن عمَّ الهدى بقاع الأرض، لقد كان المسلمون رعاةً للبقرة، فأصبحوا قادة الأمم، وحينما انكمشوا وآثروا الراحة والسكون غزواً في عقر دارهم، فكتائب المسلمين في السنة الواحدة والخمسين للهجرة كانت تغزو مشارق الأرض ومغاربها، وتحمل للإنسانية العقيدة البانية، وتمدّ إليها المصلحة الحانية، وتجعل الولاء وحده الله تعالى .
والصحابي الجليل الربيع بن زياد الحارثي أمير خراسان، وفتح سجستان، والقائد المظفر، يمضي على رأس جيشه الغازي في سبيل الله، ومعه غلامه الشجاع فروخ .

هذا الصحابي الجليل عزم بعد أن أكرمه الله بفتح سجستان وغيرها من الأصقاع أن يختم حياته الحافلة بعبور نهر سيحون، ورفع رايات التوحيد فوق ذرا تلك الأصقاع، والتي كانت تسمى وقتها بلاد ما وراء النهر .
فهل من عمل أعظم من أن تنتشر الهدى في الأرض؟ نحن هنا في الشام لولا سيدنا خالد ما كنا مسلمين في شمال هذه البلاد، وسيدنا عمر جاءه رسول عامله على أذربيجان، فمن يحكم أذربيجان في عهد عمر؟ عمر، من عاصمة المدينة النبوية، وهي إحدى جمهوريات الاتحاد السوفيتي، وكان سيدنا عمر عملاق الإسلام قد وصلت فتوحاته إلى أذربيجان .

فهذا الصحابي الجليل أراد أن يفتح بلاد ما وراء النهر، فأعدّ للمعركة الموعودة عدتها، واتخذ لها أهبتها، وفرض على عدوه زمانها ومكانها فرضاً، ودائماً الأمم الضعيفة والمخذولة تُفرض عليها المعاركُ فرضاً، تُفرض عليها

أمكنَّها وأزمنتها وأسلحتُها، لكن الأمم الظافرة تفرض على أعدائها المكان والزمان والسلاح، ولما نشب القتال أبلى هذا القائد الربيع وجنده بلاءً ما يزال يذكره التاريخ بلسان نديٍّ بالحمد، لطيف بالإكبار، وأظهر غلامه فروخ في ساحات الوغى من ضروب البسالة، وصنوف الإقدام ما زاد الربيع إعجاباً به، وإكباراً له، وانجَلت المعركة عن نصر مؤزَّرٍ للمسلمين، فزلزلوا أقدام عدوهم، ومزقوا صفوفه، وفرقوا جموعه.

أخواننا الكرام، كلمة حق؛ المعركة بين حق وباطل قصيرة جداً، لأن الله مع الحق، والمعركة بين حقين لا تكون، بل هي مستحيلة، والمعركة بين باطلين تدوم كثيراً، فبين حقين مستحيلة، وبين حق وباطل قصيرة، وبين باطل وباطل طويلة، لأن الله مع المؤمنين، وأكبر دليل المسلمون فتحوا الأندلس، فلما مالوا للراحة والغناء والموشحات والجواري أخرجوا منها، وكان آخر ملك خرج من الأندلس اسمه: عبد الله الصغير، وقد قالت له أمه عائشة:

إبكِ مثل النساء مُلكاً مُضاعفاً لم تحافظِ عليه مثل الرجال

فهناك قوانين، إذا كنت مع الله كان الله معك، وإذا أردت نشر الهدى يعينك الله، إذا أقيمت شرع الله يحفظك الله .

ثم عبروا النهر الذي كان يحول دونهم ودون الانسياح في بلاد الترك، ويمنعهم عن الاندفاع نحو أرض الصين، والإيغال في مملكة الصغد، فلما اجتازوا النهر وصلوا إلى معاقل الأتراك في أصل موطنهم، وإلى بلاد الصين، وامتدَّت الفتوحات إلى أقصى المشرق، وما إن عبر القائد العظيم النهر، واستقرت قدماه على ضفته الثانية، حتى بادر وتوضأ هو وجنوده من مائه، فأحسنوا الوضوء، واستقبلوا القبلة، وصلوا ركعتين شكراً لله واهب النصر .

أخواننا الكرام، إذا حققت إنجازاً في الحياة، وتزوجت زوجةً سالحةً، وتوظفت، أسست عملاً، فقد أزيلت عقبة، وانحلت عقدة، وزال خطر، وتبدد شبح المرض، وأثبت التحليل أن الجسم سليم، والنبى علمنا أن نصلي لله ركعتي الشكر، فطبَّق هذه السنة كلما حققت إنجازاً، أو ارتقيت مكانة، أو نلت مكسباً، أو وصلت إلى هدف، أو زال من أمامك عقبة، أو تبدد شبح مصيبة، بادر إلى صلاة الشكر، فلها معانٍ كثيرة، أنت موحد، ولن تغفل عن فضل الله، ولن تعزو أمراً إلى بشر، ولن تشرك، فأنت وفي لمن أنعم عليك، قال تعالى:

﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾

[سورة إبراهيم الآية: 7]

فهذا القائد الربيع بعد أن عبر النهر، وفتح هذه البلاد، توضأ من ماء النهر هو وجنوده، وصلوا لله ركعتان، شكراً على نعمة النصر، ثم كافأ هذا القائد غلامه فروخاً على حسن بلائه فأعتق رقبتَه، وأصبح حراً، وأعطاه نصيبه من الغنائم الكثيرة الوفيرة، ثم زاده من ماله الخاص شيئاً كثيراً، ولم تطل حياة هذا الصحابي الجليل كثيراً، إذ وافاه الأجل المحتوم بعد سنتين اثنتين من تحقيق حلمه الكبير، فمضى إلى ربه راضياً مرضياً .

أخواننا الكرام، والله إني لكم لناصح: إن الدنيا تافهة، ولا قيمة لها، فقد أوحى ربك إلى الدنيا أنه من خدمك فاستخدميه، ومن خدمني فاحدُميه، والله ليس في الدنيا إلا عمل يرضي الله، هذا الذي يموت، وقد أَرْضَى اللهُ قَبْلَ أن يموت، فهذا لم يمُت .

أنا زرت قبل أيام رجلاً له باع طويل في تعليم القرآن، منذ خمسين عاماً وهو يعلم كتاب الله، أُصيب بمرض

عضال، قلت لأولاده: والله ليست هذه مصيبة، المصيبة أن يُمضيَ الإنسانُ أيامَه بالمعاصي، ثم يأتيه مرض عضال، ماذا يفعل؟ انتهى، المصير واضح، لكن هذا الإنسان أمضى حياته في طاعة الله، وفي الدعوة إليه، وفي خدمة الخلق، وطلب العلم وتعليمه، وفي الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وخدمة أهل الحق، هل هذا يعد خاسراً؟ الموت حق، ولا بد أن يأتي .

وصل إلى بلاد ما وراء النهر، ثم وافته المنية، فهنئاً له، هذا ليس موتاً، هذا عرس، هذه تحفة .
أين كان مقر القائد فروخ، وكم كان عمره حينما تزوج، وما اسم مولوده الذي رزق به، وإلى ماذا يشده الحنين دائماً، وهل تابع سيرته في الجهاد؟

أما الفتى الباسل الشجاع فروخ فقد عاد إلى المدينة المنورة، يحمل معه سهمه الكبير من الغنائم، والهبة السخية التي وهبها له القائد العظيم، ويحمل فوق ذلك حريته الغالية، لقد أصبح حراً، وذكرياته الغنية بروائع البطولات المكلفة بغبار المعارك، أما هذا الغلام الحر الغني فعاد إلى المدينة دفاق الحيوية، ممثلاً فتوةً وفروسية، وكان يخطو نحو الثلاثين من عمره .

وقد عزم فروخ أن يتخذ لنفسه منزلاً يستقر فيه، وزوجةً يسكن إليها، فاشترى داراً في أوسط دور المدينة، واختار امرأة راجحة العقل .

أخوانا الكرام، أول حق لأولادك عليك، وأقدس حق لأولادك عليك؛ أن تحسن اختيار أهمهم، فالمرأة العاقلة لا تقدّر بثمن، إنك إن اخترت امرأة عاقلةً ضمنت أسرة ناجحة، وضمنت أولاداً مهنيين، يكونون أعلام المجتمع، فاختر فروخ امرأة راجحة بالعقل، كاملة الفضل، صحيحة الدين، تقاربه في السن، واقترن بها .

لقد نعيم فروخ بهذه الزوجة، وبهذه السكينة، ورأى في صحبة امرأته هناءة العيش، وطيبة العشرة، ونضارة الحياة، وفوق ما كان يرجو ويأمل، إلا أنه هنا بدأت العقدة، فالإنسان الذي يعرف لماذا خلق في الحياة، والذي يعرف قيمة الوقت، لا يركن للنعيم في الدنيا؟ خذوا هذا الكلام، التفاهون وحدهم الذين يركنون إلى الدنيا، بيت واسع، مفروش بأحدث الأثاث، دخل كبير، شاب في ريعان الشباب، زوجة شابة، مركبة فخمة، مكان آخر بالمصيف، ماذا فعلت؟ أقول لك: ما فعلت شيئاً، هذا وقت ثمين، هذا الوقت يجب أن ينفق إنفاقاً استثمارياً، لا إنفاقاً استهلاكياً، أكلنا، وشربنا، ونمنا، وعملنا، واستمتعنا، وتزهدنا، هذا استهلاك لرأس مالك الثمين.

كنت مرة في مكان جميل، فرأيت بيتاً جميلاً جداً، والمهندس الذي صممه على مستوى عالٍ جداً من الذوق، والأناقة، والإبداع، قلت في نفسي: لو أن هذا البيت لك، وسكنت فيه، وتمتعت بهذه المناظر الجميلة يوم بعد يوم، إلى أن يأتي الأجل، ثم تذهبي إلى الله مفلسة، أما إذا جلست في المدينة، وعملت الأعمال الصالحة، وتأتي عند الله عز وجل لعله يرحمك بهذه الأعمال، فالإنسان لا يستمرئ النعيم في الدنيا إلا إذا كان ضيق الأفق، ضعيف العقل، فحينئذ يستمرئ نعيم الدنيا لأنه مؤقت، دققوا في قول النبي عليه الصلاة والسلام:

((يا أيها الناس، إن هذه الدنيا دار التواء لا دار استواء، ودار ترح لا دار فرح، فمن عرفها لم يفرح لرخاء، ولم يحزن لشدة، ألا وإن الله تعالى خلق الدنيا دار بلوى، والآخرة دار عقبي، فجعل بلوى الدنيا لثواب الآخرة، وثواب الآخرة من بلوى الدنيا عوضاً، فيأخذ ويبتلي ليجزي، فاحذروا حلاوة رضاعها لمرارة فطامها، واحذروا

لذيد عاجلها لكرية أجلها، ولا تسعوا في عمران دار قد قضى الله خرابها، ولا تواصلوها وقد أراد منكم اجتنابها،

فتكونوا لسخطه متعرضين، ولعقوبته مستحقين))

فهذا فروخ رغم أن البيت في المدينة، والزوجة كاملة وصالحة، وحياة مريحة، ومعه ثروة طائلة، على الرغم من كل هذه الشروط الرائعة التي توافرت له، بعد أن أعتقه سيده، وبعد أن أبلى بلاءً حسناً في القتال، وتلك الزوجة الصالحة، على كل ما حباها الله من كل كريم الشمائل، وجيل الخصال، لم يستطع أن يغلب فروخاً على حنينه إلى خوض المعارك، وإن خوض المعارك فيه رقي، وأضرب مثلاً:

لو جلس رجل في حوض سباحة، حيث الماء دافئ، فارتاح بالجلوس في هذا الحوض، فهل يجعله عالماً؟ لا، إنه استمتع رخيص، واستهلك للوقت، فلما يميل الإنسان إلى الراحة، والقعود للتمتع، واستهلاك جهود الآخرين، والأخذ من طيبات الحياة الدنيا، معنى ذلك أنه يستهلك رأس ماله، ألا وهو عمره الثمين، وهذا سيجعله يوم القيامة فقيراً، لهذا قيل: الغنى غنى العمل الصالح، والفقر فقر العمل الصالح، والغنى والفقر بعد العرض على الله . فاشتاق فروخ إلى سماع وقع النصال على النصال، وولع لاستئناف الجهاد في سبيل الله، فكان كلما ترددت في المدينة أخبار انتصارات الجيوش الإسلامية الغازية في سبيل الله، تأججت أشواقه إلى الجهاد، واشتد حنينه إلى الاستشهاد .

وذاث يوم من أيام الجمع، سمع فروخ خطيب المسجد النبوي الشريف، يذف للمسلمين بشرى انتصارات الجيوش الإسلامية في أكثر من ميدان من ميادين الحرب، ويحض الناس على الجهاد في سبيل الله، ويرغبهم في الاستشهاد إغزازاً بدينه، وابتغاءً لمرضاته، فعاد إلى بيته، وقد عقد العزم على الانضواء تحت راية من رايات المسلمين المنتشرة تحت كل نجم، وأعلن عزمه لزوجته، فقالت: (يا أبا عبد الرحمن! لمن تتركني، وتترك هذا الجنين الذي أحمله بين جوانحي، فأنت هنا رجل غريب، ولا أهل لك فيها ولا عشيرة؟ فقال: أتركك الله، -أما علمنا النبي عليه الصلاة والسلام دعاء السفر؟ فعن عبد الله بن سرجس، قال: كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا سافر، يقول: ((اللهم أنت الصاحب في السفر، والخليفة في الأهل، اللهم اصحبنا في سفرنا، واخلفنا في أهنا، اللهم إني أعوذ بك من وعاء السفر، وكآبة المنقلب، ومن الحور بعد الكون، ومن دعوة المظلوم، ومن سوء المنظر في الأهل

والمال))

ويروى الحور بعد الكور أيضاً، ومعنى قوله: الحور بعد الكون أو الكور، وكلاهما له وجه، يقال: إنما هو الرجوع من الإيمان إلى الكفر، أو من الطاعة إلى المعصية، إنما يعني من الرجوع من شيء إلى شيء من الشر-

ثم إنني خلفت لك ثلاثين ألف دينار، جمعتها من غنائم الحرب، فصونيتها وثمرتها، وأنفقي منها على نفسك، وولدك بالمعروف، حتى أعود إليك سالماً غانماً، أو يرزقني الله الشهادة التي أتمناها، ثم ودعها ومضى إلى غايته، وضعت السيدة الرزان حملها بعد رحيل زوجها ببضعة أشهر، فإذا هو غلام مشرق الوجه، حلو القسما، وفرحت به فرحاً عظيماً، كاد ينسيتها فراق أبيه، وأطلقت عليه اسم ربيعة)) وهذا الغلام الصغير موضوع درسنا اليوم .

ما هي العلامات التي ظهرت على ابن القائد فروخ، وماذا فعلت أمه بهذا الولد، وما هي الأخبار الذي وصلت عن زوجها الغائب؟

بدأت على هذا الغلام الصغير علامات النجابة منذ نعومة أظفاره، وظهرت أمارات الذكاء في أفعاله وأقواله، فأسلمته أمه إلى المعلمين، وأوصتهم بأن يحسنوا تعليمه، واستدعت له المؤدبين، وحضنتهم على أن يحسنوا تأديبه. فأنا لا أرى أعقل من أب يعطي كل جهده لتربية أولاده، إنهم كسبه الحقيقي، إنهم استمراره من بعد موته، إنهم الصدقة الجارية التي لا تنقطع بعد الموت، فما لبس هذا الغلام حتى أتقن الكتابة والقراءة، ثم حفظ كتاب الله عز وجل، وجعل يرتله ندياً طرياً كما أنزل على فؤاد محمد صلوات الله عليه، ووعى ما تيسر من أحاديث رسول الله، واستظهر كلام العرب، وعرف من أمور الدين ما ينبغي أن يعرف، وقد أغدقت أم ربيعة على معلمي ولدها ومؤدبيه المال والجوائز إغداقاً، فكانت كلما رآته يزداد علماً، تزيده براً وإكراماً. بالمناسبة أرى من الحكمة البالغة أن تكون علاقتك طيبة جداً بمعلمي أولادك، لأنه بين أيديهم فلذة كبذك، إن أحسنوا تعليمه فزت فوزاً عظيماً، وهناك آباء يقسون في تعاملهم مع معلمي أولادهم، أو يكيلون لهم كلاماً قاسياً في غيبتهم على مسمع من أولادهم، هذا ليس من الحكمة في شيء.

إن المعلم والطبيب كلاهما لا ينصحان إذا هما لم يكرما المعلم بين يديه أثنى شيء عندك، وأنت أحياناً تقدم جهازاً للتصليح، تخاف عليه أن يصيبه شيء، فأيهما أغلى جهاز في بيتك أم ابنك؟ فيجب أن تختار له أفضل مدرسة، وأفضل معلم، والنفقات الباهظة التي تتفقاها من أجل تعليم ابنك، هذه النفقات ليست استهلاكاً، إنما هي استثمار.

أنا أقول لكم كلاماً دقيقاً، وهذا الكلام موجّه لمن عنده أولاد: شعور الأب حينما يرى ابنه في أعلى مرتبة أخلاقية، وعلمية، ودينية، شعور لا يوصف، بل يمتلئ قلبه سعادة، وقد قال الله عز وجل:

﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾

[سورة الفرقان الآية: 74]

وأحياناً يلح الأب ابنه وهو يصلي، وقد تكون هذه الصلاة جوفاء، فكيف إذا كان ابنه عالماً مصلحاً؟ سيدنا إبراهيم قال تعالى في حقّه:

﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ﴾

[سورة الصافات الآية: 102]

يعني من سعادتك الكبرى العظيمة: أن يكون ابنك صالحاً. كانت تترقب عودة أبيه، وتجتهد في أن تجعله قرّة عين لها وله، لكن فروخاً طالت غيبتة، ثم تضاربت الأقوال فيه، قال بعضهم: إنه وقع أسيراً في أيدي الأعداء، وقال آخرون: إنه ما زال طليقاً يواصل الجهاد، وقال فريق ثالث عائد من ساحة القتال: إنه نال الشهادة التي تمنّاها، فترجح هذا القول الأخير عند أم ربيعة لانقطاع أخبار زوجها، فحزنت عليه حزناً أمضى فؤادها، ثم احتسبته عند الله.

هناك قصص للتابعين فيها مواقف، لو سألتني: هل هي وافق الشرع؟ أقول لك: هذه مواقف شخصية، وليست مواقف شرعية، يا ترى هل يجوز للإنسان أن يغيب عن زوجته عشرين عاماً؟ هذا الموقف ليس موقفاً شرعياً، هذا موقف شخصي، ولكل مجتهد نصيبٌ من اجتهاده، والله تعالى رب النوايا، أنا لا أقر ما فعله فروخ حينما ترك امرأته وهي حامل، وغاب أمداً طويلاً، يا ترى هكذا الشرع يأمرنا؟ نحن نقرأ قصة، نأخذ منها الإيجابيات، ونتغافل عن السلبيات .

ما هي الحرفة التي اختارها ربعة حينما كبر، وعن أخذ العلم، وكيف قسم وقته ؟

أيفع ربعة، ودخل مداخل الشباب، واستكمل ما ينبغي لفتى مثله أن يستكمله من القراءة والكتابة، وزاد على أقرانه، فحفظ القرآن وروى الحديث، فلو تخيَّرت له حرفة من الحرف، فإنه لا يلبث أن يتقنها، وينفق عليك، هذه هي النصيحة، فماذا اختار ربعة؟ اختار لنفسه العلم .

أنا ألاحظ أباً يرسم لابنه خطة، أن يكون معه في المحل التجاري، لكن أحياناً هناك أبناء مشغوفون بالعلم، فالأب العاقل إذا رأى من ابنه إصراراً على اختصاص معين، فينبغي أن يفسح له المجال، لأنه لا ينبغي إلا مسابرة في ميله هذا .

فاختار ربعة أن يكون عالماً، وعزم على أن يعيش متعلماً ومعلماً ما امتدت به الحياة، وكلكم يعلم أنه يظل المرء عالماً ما طلب العلم، فإذا ظن أنه قد علم فقد جهل، لذلك أقبل ربعة على حلقات العلم، يرى الإنسان أحياناً عالماً، متى صار؟ حينما كان في مجالس العلم أمضى سبعة عشر عاماً جالساً على ركبتيه في بيوت الله، وحينما كان يتلو كتاب الله، ويحفظ كتاب الله، ويفسر كتاب الله، ويدعو إلى الخير، أين كنت أنت؟ كل إنسان له مسعى، قال تعالى:

﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ * وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ * وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ * إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ﴾

[سورة الليل الآية: 1 - 4]

أقبل على حلقات العلم التي كان يزخر بها مسجد المدينة، كما يقبل الظمان على الموارد العذاب، ولزم البقية الباقية من الصحابة الكرام، وعلى رأسهم أنس بن مالك خادم رسول الله، هذا أكبر أستاذ له، وأخذ عن سعيد بن المسيب، ومكحول الشامي، وسلمة بن دينار، وواصل الليل بالنهار، إقبالاً على العلم، وطلباً له، واحتواءً له، وإذا كلمه أحد ودعاه إلى الرفق بنفسه، كان يقول: سمعنا أسياننا، يقولون: العلم لا يعطيك بعضه إلا إذا أعطيته كلك، فإذا أعطيته بعضك لم يعطك شيئاً، ليس في العلم حل وسط، يمكن أن يكون في العمل حل وسط، بل في كل شيء حل وسط إلا في العلم، فالعلم يحتاج إلى إتقان، والعلم لا يعطيك بعضه إلا إذا أعطيته كلك، فإذا أعطيته بعضك لم يعطك شيئاً، والشيء الغريب أنه لا تحصل لذة العلم إلا بالتعمق فيه، فعدم تعمق العلم عبء وملل، لذلك ضعف الطلاب يكون في مادة يكرهونها كراهية شديدة، أما إذا أتقنوها أصبحت متابعتها متعة لهم .

ثم ما لبث كثيراً حتى ارتفع ذكره، وبزغ نجمه، وكثر أخوانه، وأولع به تلاميذه، وسودده قومه، وأقول لكم بصراحة: إذا حضر الرجل مجالس العلم، وطلب العلم بصدق وبإخلاص، فهذا الإنسان من حقه على الله، ومن

كرامته على الله؛ أن يبسرّ له سبيل نشر العلم ، ويرزقه قدرة على ذلك، أمّا سماع وسماع إلى مالا نهاية، فمستحيل، فكل إنسان طلب العلم يوفقه الله، أخي أنت أين تعمل؟ أعمل موظفاً عند الله عز وجل، أحيانا الإنسان بصدقه وإخلاصه، ومتابعته، وطاعته، يطلق الله لسانه، ويمنحه الأسلوب المؤثر الذي يقنع الناس به، فيلتفون حوله، ويستفيدون منه، ويشجعونه، هذا شيء الأاحظه، ما من أخ تعلم بصدق، وبإخلاص، وابتغى مرضاة الله عز وجل، إلا ويسرّ الله عز وجل له عملاً في الدعوة إليه، على صعوبة هذه الأعمال، وصعوبة الوصول إليها، قال تعالى:

﴿فِي بُيُوتٍ أُذِنَ لِلَّهِ أَنْ تَرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾

[سورة النور الآية: 36]

فإذا أذن الله في عليائه لهذا الإنسان أن ينطق بالحق، فليس لأحد في الأرض ينتظر منه الموافقة، فالإنن الحقيقي من عند الله، وانعكاسه موافقة أولي الأمر .

سارت حياة هذا العالم الصغير، فكان شطراً من يومه في داره لأهله وأخوانه، وشرط آخر لمسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم للعلم وحلقاته، ولقد مضت حياته متشابهة حتى وقع فيها ما لم يكن في الحسبان، ولا زلنا في عقدة القصة .

ما هي البشرى التي زفت لأم ربيعة، وما هو الفزع الذي دخل على قلبها، وكيف انحل هذا الفزع عنها، وما هو ملخص هذه القصة ؟

في أحد الأيام، وفي عشية من عشيات الصيف، وصل إلى المدينة المنورة فارس في أواخر العقد السادس من عمره، ومضى في أزقتها راكباً جواده، قاصداً داره، وهو لا يدري إن كانت داره ما تزال قائمة على عهده بها، أم أنّ الأيام قد فعلت بها فعلها، فمضى على غيابه عنها ثلاثين عاماً .

أنا أذكر مرة، سمعت قصة إنسان خطب فتاة، فلما دخل بها لم تعجبه إطلاقاً، واسودّت الدنيا في عينيه، وضاعت نفسه، وفي صبيحة اليوم التالي هام على وجهه، وهو من سكان المدينة المنورة، غاب عن المدينة عشرين عاماً، لما رأته زوجته في أول لقاء معها، رأته متضيقاً، قالت له: قد يكون الخير كامناً في الشر، يعني إن رأيتني شرّاً، فقد يكون الخير كامناً في الشر، بعد أن عاد بعد عشرين عاماً، دخل إلى المسجد، فرأى عالماً شاباً وحوله آلاف مؤلفة، سأل: من هو؟ فإذا هو ابنه، فلما انفضّ الناس من حوله، قال: يا فلان، قل لأمك: إن في الباب رجلاً، يقول لك: قد يكون الخير كامناً في الشر، قالت: يا بني إنه أبوك .

فحينما عاد إلى المدينة، سأل عن أخبار زوجته الشابة، هل وضعت حملها، وهل كان ذكراً أو أنثى؟ وإذا كان ذكراً فما حاله اليوم؟ أسئلة كثيرة تواردت على ذهنه، لكن في القصة موقف عجيب! وهو أن زوجته حينما رأته، وأبلغت ابنها فروخاً أنه أبوه، لأنه رأى الباب مفتوحاً فدخل، إنسان غاب عن بلده أمداً طويلاً، فالتبس الأمر على فروخ أنه إنسان فارس، يدخل إلى بيت دون استئذان، وهو بيته، فحدثت مشادة بينه وبين ابنه دون أن يعرف ، استيقظت الزوجة على الضجيج، فأطلت من النافذة، فقالت: (يا بني إنه أبوك، وحينما سمع ربيعة أنّ هذا أبوه، طفق يعانقه، ويقبل يديه، ونزلت أم ربيعة تسلم على زوجها الذي ما كانت تظن ظناً أنه حيٌّ على وجه الأرض، بعد أن انقطعت أخباره مدةً طويلة .

جلس فروخ إلى زوجته، وطفق يحدثها عن أحواله، ويكشف لها عن أسباب انقطاع أخباره، ولكنها كانت في شغل شاغل عن كثير مما يقول، لقد نغص فرحتها بعودته، واجتماع شملها به، خوفها من غضبه على إضاعة المال الكثير الذي أودعه عندها، فقد ترك ثروة طائلة، كانت تقول في نفسها: ماذا لو سألني الآن عن ذلك المبلغ الكبير؟ وهي أنفقتة كله على ابنها، حتى صار بهذا العلم، ماذا سيكون: لو أخبرته أنه لم يبق منه شيء؟ أيقنعه قولي: إنني أنفقتة على تربية ابنه وتعليمه، وهل تبلغ نفقة ابنه هذا المبلغ الضخم؟ أيصدق ذلك؟ -في داخلها صراع مع نفسها-

وفيما كانت أم ربيعة غارقة في هواجسها، التفت إليها زوجها، وقال: لقد جئتك يا أم ربيعة بأربعة آلاف دينار، فأخرجي المال الذي أودعته عندك، وضمي إليه، ونشتري بالمال كله بستاناً، أو عقاراً، نعيش من غلته ما امتدت بنا الحياة، فتشاغلت عنه ولم تجبه بشيء، أعاد عليها الطلب، وقال: أين المال حتى أضم إليه ما معي؟ قالت: لقد وضعته حيث يجب أن يوضع، وسأخرجه لك بعد أيام قليلة إن شاء الله، وقطع صوت المؤذن عليها الحديث، فهبّ فروخ إلى إيريقة فتوضأ، ومضى نحو الباب، يقول: أين ربيعة؟ فقالت: سبقك إلى المسجد، منذ النداء الأول، ولا نحسبك أن تدرك الجماعة .

فبلغ فروخ المسجد، ووجد أن الإمام قد فرغ من الصلاة، فأدى المكتوبة، ثم مضى نحو الضريح الشريف، فسلم على النبي صلى الله عليه وسلم، ثم انثنى نحو الروضة المطهرة، فقد كانت في فواده أشواق إليها، تخير مكان في رحابها وجلس، ولما هم بمغادرة المسجد، وجد باحته، قد غصت على رحبها بمجلس من مجالس العلم، لم يشهد له نظيراً من قبل، ورأى الناس، قد تحلقوا حول شيخ المجلس حلقة إثر حلقة، حتى لم يتركوا للساحة موطئاً لقدم، وأجال بصره في الناس، فإذا فيهم شيوخ معمرّون، ومعمّمون، وذو أسنان، ورجال متوقرون، تدلّ هياتهم على أنهم ذو أقدار، وشبان كثيرون قد جنّوا على ركبهم، وأخذوا أقلامهم بأيديهم، وجعلوا يلتقطون ما يقوله الشيخ كما تلتقط الدرر، ويحفظونه في دفاترهم، كما تحفظ الأعلاق النفيسة، وكان الناس متجهين بأبصارهم إلى حيث يجلس الشيخ، منصتين إلى كل ما يلفظ من قول، حتى كأنّ على رؤوسهم الطير، وكان المبلغون، ينقلون ما يقوله الشيخ فقرة فقرة، فلا يفوت أحد منها شيء مهما كان، وحاول فروخ أن يتبين من هو الشيخ؟ -ولا يعرف أنه ابنه- فلم يفلح في ذلك لموقعه منه، وبُعده عنه، لقد راعه منه بيانه المشرق، وعلمه المتدفق، وحافظته العجيبة، وأدهشه خضوع الناس بين يديه .

وما هو إلا قليل، حتى ختم الشيخ المجلس، ونهض وفاقاً، فهبّ الناس متجهين إليه، وتزاحموا عليه، وأحاطوا به، واندفعوا وراءه، وهنا التفت فروخ إلى رجل كان يجلس في المجلس، قل لي بربك: من الشيخ؟ قال باستغراب: ألا تعرفه! ليس في المدينة كلها من لا يعرفه، هو أعلم علمائها، قال: بلى، من هو؟ قال: أعذرني أنا لا أعرفه، لقد أمضيت نحواً من ثلاثين عاماً بعيداً عن المدينة، ولم أعُد إليها إلا أمس، قال: لا بأس، اجلس إلي قليلاً، لأحدثك عن هذا الشيخ .

إن الشيخ الذي استمعت إليه سيّد من سادات التابعين، وعلم من أعلام المسلمين، وهو محدث المدينة، وفقهها، وإمامها، على الرغم من حداثة سنه، قال فروخ: ما شاء الله، لا قوة إلا بالله، وإن مجلسه يضمّ كما رأيت مالك بن

أنس، وأبا حنيفة النعمان، ويحيى بن سعيد الأنصاري، وسفيان الثوري، وعبد الرحمن بن عمر الأوزاعي، والليث بن سعد، قال فروخ: غير أنك لم تخبرني من هو الشيخ؟ .

فلم يُتخ له الرجل الفرصة لإتمام كلامه، وأرى وهو فوق ذلك؛ أنه سيدٌ، كريمٌ الشمائل، موطأ الأكناف، سخي اليد، فما عرف أهل المدينة أحداً، أوفر منه جوداً، لصديق وابن صديق، ولا أزهده منه في متاع الدنيا، ولا أرغب بما عند الله، قال فروخ: ولكنك لم تذكر لي اسمه، قال: إنه ربيعة الرأي، قال فروخ: ربيعة الرأي! قال الرجل: نعم، اسمه ربيعة، لكن علماء المدينة وشيوخها دعوه ربيعة الرأي، لأنهم إن كانوا لم يجدوا لقضية نصاً في كتاب الله، أو حديث رسول الله، لجؤوا إليه فيجتهد بالأمر، ويقيس ما لم يرد فيه نص، على ما ورد فيه نص، ويأتيهم بالحكم فيما أشكل عليهم، على وجه ترتاح له النفوس، قال فروخ: لكنك لم تتسبه لي، ابن من هو؟ .

قال الرجل: إنه ربيعة بن فروخ، المكنى بأبي عبد الرحمن، لقد ولد بعد أن غادر أبوه المدينة مجاهداً في سبيل الله، فتولت أمه تربيته وتنشئته، ولقد سمعت الناس يقولون: إن أباه قد عاد الليلة الماضية، هكذا قال الناس، عند ذلك تحدرت من عين فروخ دمعتان كبيرتان، لم يعرف لهما سبباً، ومضى يحثُّ الخطأ نحو بيته، فلما رآته أم ربيعة، والدموع تملأ عينيه، قالت: ما بك يا أبا ربيعة؟ قال: ما بي إلا الخير، لقد رأيت ولدنا ربيعة في مقام من العلم والشرف والمجد، ما رأيت له لأحد من قبل، فاغتمت أم ربيعة الفرصة، وقالت: أيهما أحبُّ إليك ثلاثون ألف دينار، أم هذا الذي بلغك عن ولدك من العلم والشرف؟ فقال: بلى والله، هذا أحبُّ إليّ، وأثرٌ عندي من مال الدنيا كله، فقالت: لقد أنفقت كل ما تركته لي على ولدك، حتى صار عالماً، فهل طابت نفسك بما فعلت؟ قال: نعم، وجزيت عني خيراً وعن المسلمين) .

أخواننا الكرام، هذه قصة ملخصة بآخرها، إذا استطعت أن تجعل ابنك إنساناً عظيماً، فأنت أسعدُ إنسان في العالم، إذا استطعت أن تربي ابنك تربية إسلامية صحيحة، فيطلب العلم، ويصير معلم الناس، فأنت أسعد إنسان بالعالم، ولو أنفقت عليه ألوف مئات الألوف، فأنت الراجح، فلو أنفقت عليه كل شيء، وصار ابنك في هذا المستوى، فأنت الراجح، ترك لها ثروة طائلة جداً، وهي خائفة أن يقول لها: أين المال؟ فلما رأى ابنه بهذا المكان، نسي المال، ما أردت من هذه القصة إلا أن أحتكم على تربية أولادكم، لأن الآباء إذا رأوا أبناءهم منحرفين مع رفقاء السوء، في الضلالات، وفي دور اللهو، تُعصر قلوبهم آلاماً، ويتقطع قلب الأب ألماً، ماذا يفعل؟ .

أيها الأخوة، أملنا في الصغار، والمعول عليه هم الصغار، كل واحد له ابن يحتاج من وقتك الشيء الكثير، ومن مالك الشيء الكثير، وقدّم له كل ما تملك، ليكون كما يريد الله عز وجل، فهذا زادك عند الله، والذي عنده ابن صالح، فليسمع هذا الكلام مرة ثانية، والذي عنده ابن صالح، مقبل على الدين، مستقيم على أمر الله، يحب الله ورسوله، يجب أن يضع شفته على الأرض، ويشكر الله عز وجل على هذه النعمة، لأنه ما من نعمة على الإطلاق تفوق هذه النعمة، فهذا مجاهد، وابنه عالم، فال مجد من طرفيه، وقد فتح هو البلاد، وابنه فتح القلوب.

والحمد لله رب العالمين